خطبة صلاة الجمعة 6/ 8/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(درس من الهجرة (حفظ الأمانة))

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11، 12].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به.

والأذن الواعية هي أذن سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظُ ما سمعَتْ، وتفكر فيه وتعمل بموجِبِه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة الرابعة والعشرون في سلسلة عنوانها (**توعية**)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحةً مرة لنُعَمِّم خيرها وننشر فضلها، وخاطئةً أو مخطئةً مرة لنَحْذَر شرها ونترك فعلَها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يحب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: **درس من الهجرة (حفظ الأمانة)**

حادثة الهجرة النبوية التي أجمع المسلمون على اعتبارها بدءَ التاريخ الإسلامي لعظيم أمرها وجليل شأنها تحمل دروساً عقدية وسلوكية كثيرة، دروساً في الصبر ودروساً في التضحية ودروساً في الحب في الله ودروساً في تحمل المسؤولية وغيرها، وسأختار لكم درساً واحداً يسَعُهُ المقامُ، إنه حفظ الأمانة.

جاء في سيرة ابن هشام: (اجتمع في دار الندوة أشراف قريش... فَقَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ: وَاَللَّهِ إنَّ لِي فِيهِ لَرَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ بعدُ قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْحَكَمِ؟ قَالَ أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلِيدًا نَسِيبًا وَسِيطًا فِينَا، ثُمَّ نُعطي كُلَّ فَتًى مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا ثُمَّ يَعْمِدوا إلَيْهِ، فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ، فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ جَمِيعًا، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ قَوْمِهِمْ جَمِيعًا، فَرَضُوا مِنَّا بِالْعَقْلِ، فَعَقَلْنَاهُ لَهُم، فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَلَى ذلك وهم مجمعون له.

فَأَتَى جبريلُ عَلَيْهِ السّلَامُ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: لَا تَبِتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فراشِك الَّذِي كنتَ تَبِيتُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَتْ عَتْمَة مِنْ اللَّيْلِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ يَرْصُدُونَهُ مَتَى يَنَامُ، فَيَثِبُونَ عَلَيْهِ؟ فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَكَانَهُمْ، قَالَ لعليّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: نَمْ عَلَى فِرَاشِي وتَسَجَّ بِبُرْدي هَذَا الحَضْرمي الْأَخْضَرِ، فَنَمْ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُص إلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَنَامُ فِي بُرْدِه ذَلِكَ إذَا نَامَ) وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم.

وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر إلى المدينة المنورة ووصل سالماً إليها واستقبله أهلها في قصة الهجرة التي تعلمون.

استوقفني – أيها الإخوة – في النص الذي نقلته لكم من سيرة ابن هشام وقد توافقت عليه كتب السير، أن قريشاً مع عدائها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومع كيدها له ولأصحابه كانت تضع أماناتها عنده لعلمها أنه الصادق الأمين، وليقينها أن أصحاب الرسالة أصحاب مبادئ وقيم، واستوقفني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رؤيته لصناديد قريش يقفون على بابه يريدون قتله وتفريقَ دمه في القبائل لم يرض إلا أن يترك وراءه من يرد الأمانة إلى أصحابها ويعيد الودائع إلى أهلها...!

ففهمت من هذا الموقف أن حفظ الأمانة أساس في هذا الدين ومعتنقيه، في عسرهم ويسرهم.

نعم؛ من أبرز علامات المؤمن أنه يؤدِّي الحقوق والأمانات إلى أهلها في أزمانها وأماكنها، فيعيش أمْنَاً حقيقياً.

أما من فقد الإيمان أو اعتدى على الحقوق وخان فإنه يعيش خوفاً حقيقياً، يخاف وقوعه بيد العدالة حيناً، ويخاف وقوعه بيد من اعتدى عليهم حيناً آخر، ويخاف وقوعه بيد الله حيناً ثالثاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النِّساء:58].

جاء في تاريخ ابن عساكر عن يزيد بن جابر قال: (رأيت سِواراً من ذهب، وزنه ثلاثون مثقالاً، معلَّقاً في قنديل من قناديل مسجد دمشق أكثر من شهر، لا يأتيه أحد فيأخذه)، كان رجل قد التقطه فعلقه في قنديل المسجد ليعود صاحبه بعد أكثر من شهر ليأخذه.

إنها الأمانة التي لم تمتد لها يدُ أحدٍ من المؤمنين بل حفظوها لصاحبها، إذ فهم الجميع فهم قيمَ دينهم ودروسَ الهجرة.

أرسلت طالبة جامعية كريمة سؤالاً تقول فيه: إنها تُدرِّسُ طلاباً في المرحلة الابتدائية دروساً خصوصية وتتقاضى أجراً مناسباً على كل ساعة تدريس، بعدما تعطي الطالب فقرةً في الدرس تختبره بسؤال تطلب منه كتابة جوابه على دفتره، وبينما يجيب الطالب على السؤال خلال دقيقتين أو ثلاثة تلتفت هي إلى كتابها الجامعي لتقرأ فيه شيئاً.

سألتني: أيحلُّ لي أن أقرأ في كتابي الجامعي لمصلحتي الخاصة في أثناء هذه الدقائق أو إنها من حق الطالب وأنا أتقاضى أجرَها من ذويه!

إنها الأمانة التي شعرت هذه الفتاة بوجوب حفظها ففهمت قيم دينها ودروس الهجرة.

يروي كبار السن فينا ما رأوه: أنه في سوق مدحت باشا، كانت العادة أن توضع الأمانات من أموال وذهب عند أي دكان في هذا السوق، لأن الجميع معروفون بحفظ الأمانة، ويغادر صاحب الأمانة إلى الحج أو غيره، وعند عودته يمر على صاحب الدكان ويأخذ أمانته، ويمضي إلى بلده.

كالعادة مرّ مسافرٌ، غريب عن الشام، بالسوق يحمل صرةً حمراء، فيها نقود ليودعها أمانةً عند إحدى الدكاكين، إلى حين عودته من الحج، وافق صاحب الدكان بعد أن تأكد من عددها البالغ ثلاثة آلاف درهم، وتعرف عليه، وغادر الرجل إلى الحج قاصداً بيت الله الحرام.

بعد عدة أشهر؛ عاد الرجل ودخل إلى الدكان! فلم يجد صاحبها، فسأل عنه؟ فقال له العمال: إنه في البيت، وسيعود قريباً، وعند عودته طلب منه الرجل ماله فقال له: كم أودعت لدينا.

قال: ثلاثة آلاف درهم. قال له: ما اسمك. قال: اسمي فلان ألا تذكرني. قال له: في أي يوم كان. قال: يوم كذا، وبدأ الرجل يرتاب من الأسئلة.

قال له: ما لون الصرة التي وضعتَهم بها. قال: صرةٌ حمراء.

قال له: اجلس قليلاً، وأمر بإحضار طعام الغداء له للدكان، واستأذن منه بأن عنده أمراً ضرورياً، وسيعود على الفور.

انتظر الرجل وقتاً ليس بالقصير، وإذا بصاحب الدكان قد جاء حاملاً معه صرةً حمراء، وفيها ثلاثة آلاف درهم، عدهم الرجل وتأكد منهم، وقال لصاحب الدكان: جزاك الله خيراً وانصرف.

وهو يمشي في السوق! إذا به يرى شيئاً غريباً، اقترب ليتأكد، وكانت المفاجأة! هذه هي الدكان التي وضع أمانته فيها، قال لصاحب الدكان: السلام عليكم.

رد عليه: وعليكم السلام ورحمة الله، تقبل الله منك الحج، والحمد لله على سلامتك، هذه صرتك وفيها ثلاثة آلاف درهم، أصاب الرجل الدهشة! فقص عليه ما حصل، وأنه أخطأ في الدكان، ودخل عند جاره فأعطاه المال، ولم يشكك بكلامه؟

ذهبوا إليه وسألوه: كيف تعطي الرجل المال، وهو لم يضع عندك أمانته في الأصل؟

فقال لهم: والله الذي لا إله إلا هو أني لم أعرفه، ولم أتذكر أن لديه أمانةً عندي، ولكن لما رأيت أنه واثق من كلامه معي، وأنه غريب عن هذه البلاد، فكرت أني إن لم أعطه أمانته سيذهب مكسور الخاطر وسيحدث أهله ويقول: أن أمانته سرقت منه بالشام، وسيذيع الصيت عن أهل الشام كلهم، أنهم لا يحفظون الأمانة.

أيها الإخوة:

الطَّالب أمانة في عنق المعلِّم، والمريض أمانة في عنق الطَّبيب، والجريح أمانة في عنق الممرض، والمنشآت العامَّة أمانة بيد النَّاس، والمشتري أمانة في عنق البائع، والمراجع أمانة في عنق الموظف، والموكِّل أمانة في عنق المحامي، والخبر أمانة في عنق النَّاقل والمحرر والمذيع.

وهكذا تدخل الأمانة في العبادات والمعاملات والعلاقات الأسرية وفي القضاء وفي الولايات العامَّة والخاصة، ومظهر الإيمان برعاية الأمانة، وقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبقى سيدنا علياً

رضي الله عنه وراءه في مكة وأمره يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، ليقول للناس كافة: إن المؤمن أمين في الأزمة وفي الدعة، في العسر وفي اليسر، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

أخرج ابن ماجه عن فَضَالَةَ بْن عُبَيْدٍ حَدَّثَهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**»

وأخرج الإمام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْهِجْرَةُ أَنْ تَهْجُرَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَتُقِيمَ الصَّلاة، وَتُؤْتِيَ الزَّكاة، ثُمَّ أَنْتَ مُهَاجِرٌ، وَإِنْ مُتَّ بِالْحَضَرِ**».

والحمد لله رب العالمين